

أبو العباس الغبريني البجائي (ت704هـ/1304م)
ومنهجه من خلال كتابه: "عنوان الدراية"

أ. مغراوي مصطفى *

مقدمة: تقاسم المغرب الأوسط الوزن الحضاري الإسلامي مع المغربين الأدنى والأوسط، وكما كان للقيروان علماءؤها وفقهاؤها، ولمراكش فلاسفتها ومفكروها، ولقرطبة صنّاعها ومُبدعوها، كان لبجاية وتيهرت وتلمسان بُغَاؤها وصلحائها، وحتى لا نكون أمة تصنع التاريخ ولا تجيد تدوينه كان لزاما علينا الاعتناء بتاريخنا عامة وتاريخ الجزائر خلال الحقبة الإسلامية تدوينًا وتحقيقًا ونشرًا، حتى يتصحح المفهوم الذي شاع بين طلبتنا بأن الحضارة الإسلامية في المغرب الوسيط أهِلَّت في المغرب الأدنى ثم انتقلت إلى المغرب الأقصى والأندلس، ولم يكن المغرب الأوسط سوى تابع ومتأثر بما يأتيه شرقًا وغربًا، وفي هذا المسعى نتقدم بهذه الأسطر للتعريف بالمؤرخ البجائي أبي العباس الغبريني وكتابه "عنوان الدراية" فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"، الذي عكس لنا صورة من ازدهار الحياة الفكرية والعلمية ببجاية خلال القرن 7هـ/13م.

مولده ونسبه: بقيت بجاية تُحجّب الفقهاء والنبغاء وتحتضن العلماء والصلحاء طيلة العصر الإسلامي، تبعثرت أخبارهم بين المخطوطات والمصادر وكتب المناقب والتراجم، وجاء كتاب "عنوان الدراية" فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" ليجمع لنا أخبار علماء المدينة خلال قرن من الزمن (القرن 7هـ/13م)، وصاحب الكتاب هو المؤرخ أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد البجائي مولدًا ونشأةً ووفاءً¹، المشهور بالغبريني نسبةً إلى "بني غبرين" إحدى بطون قبيلة زواوة الأمازيغية بالمغرب الأوسط²، وإلي "بني غبرين" يُنسب الفقيه أبو مهدي عيسى بن أحمد الغبريني ت810هـ/1407م³، والفقيه المحدث أحمد بن أحمد أبو سعيد الغبريني⁴ وشقيقه الفقيه مفتي تونس أبو القاسم الغبريني⁵ وهما ابني أبي العباس الغبريني، توفيا بعد سنة 770هـ/1368م⁶.

* - أستاذ مساعد أ في التاريخ الإسلامي الوسيط- جامعة حسية بن بوعلي- الشلف.

وُلد أبو العباس أحمد الغبريني سنة 644هـ/1315م، ونشأ في طلب العلم مرتحلاً بين بجاية وإفريقية في المغرب الأدنى الذي كان يشهد حركة علمية وثقافية خلال القرن 7هـ/13م، لذا لا نجد للغبريني رحلات إلى المشرق والمغرب، ويكفي أن الغبريني عدّد في مشيخته أزيد من سبعين شيخاً تتلمذ عليهم بين فقيه ومحدث ومفسر ولغوي ومتصوف⁷.

بيئته السياسية: عاصر الغبريني سقوط الدولة الموحدية، إثر هزيمة "حصن العقاب"⁸، وثورات بني غانية التي نجحت في طرد الموحدين من بجاية واتخذتها مقراً لها لبُعدها عن عاصمة الدولة الموحدية مراكش⁹، وتوالي هجمات النصارى على السواحل المغربية، فكان لأسطول بجاية حينها دور في التصدي لتلك الهجمات¹⁰، واستقر الوضع سياسياً بتراجع الموحدين وسيطرة الزيانيين على المغرب الأوسط (962/633هـ-1235-1554م)، والحفصيين على المغرب الأدنى (627-982هـ/1229-1574م).

عاش الغبريني في ظلّ الدولة الحفصية، وهي الدولة الإسلامية الرابعة التي تولّت الحكم في المغرب الأدنى وأجزاء من المغرب الأوسط، ودام حكمها ثلاثة قرون ونصف، والملاحظ أن الاعتناء بالحركة العلمية ميزة عُرِفَتْ بها كل من الدولة الحفصية والمرينية والزيانية "فكانت مُنافستهم في تقريب العلماء من مجالسهم تساوي منافستهم في ضخامة السلطان وامتلاك الأوطان فعمت المعارف المدن والقرى... وجعلوا من مجالسهم حظاً لمناظرة العلماء بين أيديهم، واتخذوا الأطباء والمفاتي والشعراء فنهضوا بجميع فنون العلم وظهرت المؤلفات في مختلف المواضيع"¹¹، فقدّم العلماء وأكّرم الفقهاء لاسيما من عُرِفَ منهم بمسالمة النظام، كأبي العباس الغبريني الذي لا تُشير المصادر إلى انخراطه في إحدى الحركات المعارضة للدولة، كما لا نجد ما يجعله ضمن علماء البلاط المتميّعين للسلطة، ولعل أبا العباس الغبريني بخلفيته المذهبية المالكية كان يرى ما يراه الإمام مالك ت 197هـ/812م بأنه: "حقّ على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه أن يدخل على ذي سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر"¹².

وفي ظل هذه التحولات السياسية المتسارعة حافظت بجاية على سمعتها الحضارية ومكانتها السياسية التي استمدّتْها من مساجدها المتعددة¹³، وتجارتها الرائجة¹⁴، واستقبالها الفارين من محاكم التفتيش بالأندلس¹⁵، ويشهد لهذه الاستمرارية الحضارية المشاهد التي

نقلها الغبريني نفسه في كتابه "عنوان الدراية" من وفود العلماء ورواج المصنفات اشرقية والمغربية التي كانت تدرس في مساجد بجاية¹⁶.

عوامل نبوغه: إن الحديث عن أبي العباس الغبريني هو حديث عن شخصية موسوعية التكوين، فهو المؤرخ والأديب¹⁷، والقاضي الفقيه¹⁸، الذي جمع مع الفقه الأصول¹⁹ والتفسير²⁰ والحديث²¹، وسلك مسلك التصوف²²، وأخذ من علوم الفلسفة والمنطق²³، ومما أسهم-أيضا- في صقل شخصيته الموسوعية سعة اطلاعه ونهمه العلمي، وبيئته البجائية العلمية، بالإضافة إلى تنوع مشاربه وتعلمه على كبار شيوخ عصره.

ويتفحص مشيخة أبي العباس الغبريني التي ذيل بها كتابه "عنوان الدراية"، نتلمس جليا هذا التنوع العلمي الذي انحصر في بيئته البجائية، ولا يخفى علينا موقع مدينة بجاية التي كانت معبرا للتيارات الفكرية والعلمية الوافدة من المشرق والزاحفة من المغرب، لذا قال عنها الشريف الإدريسي ت560هـ/1164م "مدينة بجاية قطب لكثير من البلاد"²⁴، وجعلها شهاب الدين الغمري ت749هـ/1349م صاحب الاستبصار "قاعدة ملك ثانية"²⁵، وهي عند الحميري ت900هـ/1494م "قاعدة الغرب الأوسط، مدينة عظيمة"²⁶.

ونلمس ذلك-أيضا- من كلام الغبريني الذي أشار إلى جملة من مشايخه الذين حظي بالجلوس إليهم والأخذ عنهم "لتكرهم على بجاية" كالفقيه أبو عبد الله بن يعقوب²⁷، والفقيه أبو القاسم من أهل إفريقية الذي تكرر حضوره إلى بجاية وقال عنه الغبريني: "لمحة من الفاضل تكفي، وإشارة منه تغني... فكيف وقد تكرر ذلك"²⁸، كما درس على مشايخ لم تتكرر زيارتهم إلى المدينة بل كانوا من "المجتازين على بجاية"²⁹.

وفي مشيخة مؤرخنا الغبريني نتلمس عوامل النبوغ، فنجد الفقهاء والمحدثين واللغويين، فالمؤرخ شاهد على مجتمعه، يكتب لعلمائه وعوامه، وملوكه وعبيده³⁰.

من الفقهاء الذين ذكرهم الغبريني في مشيخته أبو محمد عبد الحق بن ربيع ت675هـ/1276م الذي أكثر الاستفادة منه، والفقيه أبو القاسم بن زيتون ت691هـ/1291م، والفقيه أبو محمد عبد المجيد ت686هـ/1287م، والفقيه ابن عجلان ت678هـ/1279م، والفقيه عبد الله بن يعقوب وكانت "الاستفادة عن هؤلاء بالذاكرة والمباحثة ويكثر ذلك ويقل"³¹.

وفي مشيخة الغبريني نجد فقهاء استمع إليهم أضعاف ما قرأ كأبي محمد عبد العزيز القيسي³²، وأبي محمد عبد الله بن عبادة القلعي³³، كما ارتحل الغبريني إلى إفريقية للاستفادة

من مجالس الفقيهيين: أبو العباس بن عجلان ت678هـ/1279م، وأبو محمد عبد المجيد ت686هـ/1287م³⁴، فانتفع برؤيتهم وتبرك بمشاهدتهم³⁵.

تزود الغبريني -أيضا- من علوم الأصول والتفسير والحديث، وهي علوم من شأنها أن تمرّن المؤرخ على تأصيل المسائل وإرجاعها ببصيرة إلى أصولها ومنابعها، ومن ثمّ تفسيرها وتحليلها من غير إفراط ولا تفريط، وهي ميزة نجدها عند من جمع بين التأريخ وعلم أصول الدين كشيخ الإسلام ابن تيمية ت728هـ/1328م وتلميذه الإمام الذهبي ت748هـ/1347م في المشرق، ولسان الدين بن الخطيب ت776هـ/1375م في الأندلس، وابن مريم التلمساني ت792هـ/1389م في المغرب.

فقد درس الغبريني على المقرئ أبو العباس أحمد بن محمد الشاطبي ت674هـ/1286م -والكشف والبيان عن تفسير القرآن" لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي ت427هـ/1035م³⁶، كما درس عن الشيخ أبي جعفر أحمد بن محمد الصدفي كتاب "أحكام القرآن" لصاحبه أبو الحسن علي بن محمد الطبري³⁷، وعدّد الغبريني كتباً أخرى انكبّ عليها أيام تلامذه منها: كتاب "الكشاف" للزمخشري ت538هـ/1143م³⁸، وكتاب "التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل" لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي ت440هـ/1048م³⁹، وكتاب "الوجيز في شرح كتاب الله العزيز" للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي ت541هـ/1146م⁴⁰.

أما علوم الحديث فيذكر الغبريني أنه قرأ موطأ الإمام مالك بسند يصل إلى الإمام مالك نفسه، بالإضافة إلى "صحيح البخاري" و"صحيح مسلم" و"سنن أبي داود" و"جامع الترمذي" و"جامع النسائي"⁴¹، كما أخذ ودرس كتب محدثي المغرب ككتاب "التمهيد والاستدكار" لابن عبد البر (ت463هـ/1070م) وكتاب "المختار الجامع بين المنتقى والاستدكار" للفقهاء القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان التلمساني ت625هـ/1227م⁴².

كما كان للغبريني تكوينٌ على يد كبار اللغويين كأبي عبد الله التميمي الذي لازمه طويلاً فقرأ عليه النحو واللغة والأدب والتصريف، فانتفع به الغبريني وقال عنه "ما رأيت في علم العربية مثله"⁴³، بالإضافة إلى ذلك درس الغبريني الإعراب على الشيخين أبي الحجاج بن سعيد وأبي عبد الله الكناني ت699هـ/1297م⁴⁴، كما درس كتاب "الجمال" للزجاجي ت337هـ/948م على يد الفقيه النحوي أبو عبد الله الأديب⁴⁵.

وللغبريني بعض القصائد الشعرية لاتزال مخطوطة في مكتبات المغرب الأقصى من نظمها أو منسوبة إليه⁴⁶، وذكر الغبريني نفسه أنه كان قد نظم أيام شبابه قصيدة صوفية من نحو أربعين بيتاً⁴⁷، بينما أورد له النباهي بيتين من الشعر⁴⁸.

وكان لدراسة الغبريني لعلم الكلام والفلسفة والمنطق إسهام - ولاشك- في صقل شخصية الغبريني المؤرخ، فلا سبيل لمؤرخ الحضارة الإسلامية أن يُصَفِّح عن هذه العلوم التي فرضت نفسها على حيثيات التطور الفكري والحضاري والمذهبي في تاريخ المسلمين، وهو ما قرره مالك بن نبي بقوله: "قد ارتبطت الفلسفة بالتاريخ ليس فقط من حيث هو تاريخ الفلسفة أي رصد تاريخ الفكر البشري وتقلباته بل من حيث هو فلسفة التاريخ أي التفكير في تطور التاريخ وحركته ومحاولة البحث عن قانون يحكم هذا التطور ويصف هذه الحركة"⁴⁹.

فقد قرأ الغبريني المنطق والفلسفة على "طريقة الأقدمين كأبي نصر الفارابي وغيره"⁵⁰ وطريقة "الأوسطين كابن سينا وغيره"⁵¹، وطريقة "المتأخرين كمحيي الدين وغيره"⁵².

كان للغبريني - إضافة إلى ما سبق- إحاطة بعلوم "التصوف والتذكير"، فدرس عن الشيخ أبو جعفر أحمد بن محمد الصدفي، رسالة في فضائل مكة للزاهد أبي الحسن البصري 110هـ/ 728م بسند يتصل إليه، وعن الفقيه أبو جعفر أحمد بن محمد المكتب درس كتاب "قوت القلوب ومعرفة الطريق إلى معاملة المحبوب" لأبي طالب محمد بن علي المكي 386هـ/ 995م⁵³، ورسالة القشيري 465هـ/ 1072م عن الخطيب أبي عبد الله بن صالح⁵⁴.

- مذهبه أصولاً وفروعاً وسلوكاً:

لاشك أن التوجه العقيدي والقناعة المذهبية ومنهج التعبُّد خصائص تميز شخصية المؤرخ وتوجّه أهدافه وتطغى على كتاباته، وهي حقيقة حاضرة في الكتابات القديمة منها والحديثة وإن تنادى أصحابها بالمثالية والحيادية، ولعلنا نُنقِبُ في صفحات "عنوان الدراية" وبين المصادر ما يُشكل لنا صورة عن تَمَذهب الغبريني أصولاً وفروعاً وسلوكاً.

والمصادر لا تحدثنا شيئاً ذا بال عن تَمَذهب الغبريني، كما أننا لا نملك نصوصاً من كلام الغبريني تُفصِّح عن شيء من اعتقاده، وما بين أيدينا إلا سلسلة من التراجم كان للغبريني في بعضها تعاليق وتعليقات، والغالب على اعتقادنا أن الغبريني تَمَذهب بما غلب -حينها- على أهل بجاية والمغرب الأوسط من التمسك بعقيدة السنة أصولاً، ومذهب الإمام مالك فروعاً، متأثراً بطريقة الصوفية سلوكاً⁵⁵.

فقد عاش الغبريني في بيئة سنيّة بعيدا عن انحرافات الخوارج وغلو الشيعة وتأويلات المعتزلة ورموز الباطنية، كما أننا لا نجد ضمن شيوخه من أشتهر بخلاف السنة، وبتفحّص تعقيبات الغبريني على من ترجم لهم نسجل له إعجاباً وإكباراً لعلم الكلام وأهله⁵⁶، ما يجعلنا نعتقده -تحفظ- ضمن متكلمي أهل السنة، وما يُعزز لدينا هذا الاعتقاد أن الغبريني نهل في مسيرته التعليمية من كتب أهل الكلام⁵⁷، لاسيما وأن هذا العلم عرّف انتعاشاً نسبياً خلال العصر الموحدي، فرسّم وأطلق له العنان بعد تقييده وتضييقه خلال العصر المرابطي⁵⁸.
وفقها تظهر مالكية الغبريني بجلاء من خلال تكوُّنه في مجالس المالكية⁵⁹، وإحاطته بالموطأ الذي سمعه مرتين⁶⁰ "على إتقان، وتحصيل وجودة وبيان، بتفريع وتأصيل وإجمال وتفصيل وإيراد الأسئلة والجمع والفرق وغير ذلك مما جرت العادة بإيراده عند أفاضل الفقهاء، وأكابر العلماء"⁶¹، كما أنه قرأ "المدونة"⁶² و"التهذيب" و"الرسالة" و"الجلاب" و"التلقين" و"مختصر بن أبي زيد"⁶³ وهي أمهات الفقه المالكي بالمغرب، كما أننا نتحدث عن فترة (ق7هـ/13م) خرج منها المذهب المالكي منتصراً بعد جولة خاضها ضد المذهب الظاهري خلال العصر الموحدي⁶⁴.

وباستقراء تراجم الصوفية من خلال كتاب "عنوان الدراية" يبدو أن الغبريني سلك مسلك الزهاد وتأثر بالمتصوفة السنيّة، فقد أورد أبو الحسن النباهي في ترجمته للغبريني أنه "لما ولي خطة القضاء، ترك حضور الولائم، ودخول الحمام، وسلك طريق اليأس من مداخلة الناس"⁶⁵ على طريقة الصوفية.

وفي ترجمته لكبار متصوفة عصره أشاد طويلا بنبوغ شيخ الصوفية أبي مدين شعيب الغوث وأنه "الواصل القطب"⁶⁶، وأورد بعضاً من كراماته "ما يدل على علو مقامه وبديع قصده ومرامه"⁶⁷، غير أنه أعرض عن التفصيل خشية الاستطالة حسب قوله، إلا أن الذي نعتقده أن الغبريني أعرض عن الاسترسال في ذكر كرامات الشيخ أبي مدين تجنباً لإثارة حفيظة الفقهاء الذين اصطدموا طويلاً مع المتصوفة في موضوع الكرامات بين مُكذّب لها ومُشكك فيها⁶⁸.

كما أظهر الغبريني إعجابه بقطب التصوف الفلسفي ابن عربي الحاتمي الطائي ت638هـ/1240م الذي ترجم له "بالجليل الحافظ المتصوف المحقق"⁶⁹، وأبو الحسن علي بن أحمد الحرالي التجيبي ت638هـ/1241م صاحب التأويلات الباطنية⁷⁰، ترجم له الغبريني "ببقية السلف وقدوة الخلف"⁷¹، أما الصوفي المتفلسف أبو الحسن الششتري ت668هـ/1270م فقد ترجم له

الغبريني بـ "الشيخ الفقيه، الصوفي الصالح العابد، الأديب المتجرد"⁷². وفي موضع آخر من كتابه اعتبر الغبريني "العلم اللدني" - الذي يعني علم الباطن عند الصوفية - اعتبره "فرضا على الكفاية حيناً، ومتعينا في الحال"⁷³. ونظفر من كلام الغبريني دائماً ما يدل على تصوفه فقد ذكر أنه نظم قصيدة من أربعين بيتاً في التصوف تُعرف بالقصيدة الهمزية ذكرها الغبريني دون أن تصلنا⁷⁴. كما أن الغبريني افتتح كتابه بترجمته لأبي مدين 573هـ/1177م وأبي علي المسيلي 580هـ/1189م وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي 581هـ/1188م رغم أنها هؤلاء المتصوفة غير محسوبين على المائة السابعة وإنما افتتح بهم كتابه "للتبرك بذكرهم، ولانتشار فخرهم"⁷⁵.

- منهجه من خلال كتاب "عنوان الدراية":

لم يبتعد الغبريني في كتابه "عنوان الدراية" عن المعالم التي تبني عليها -عادة- كتب التراجم، ويتصفح الكتاب المرة والمرة وتتضح لنا بعض الخصائص التي ميّزت الكتاب وصاحبه، فمن الناحية الشكلية استخدم الغبريني في كتابه السجع والجمال "القصيرة والتزيينات اللفظية"⁷⁶، فبدأ كتابه بمقدمة سجعية من حوالي أربعين سطراً⁷⁷ من غير تكلف، ولا شك أن السجع يجذب الرعاية ويلفت العناية ويمنع التشتت ويمسك الفكر عن التلفت.

كما نجد الغبريني التزم -بما ألزم به نفسه- في كتابه بالحيز الجغرافي لبجاية⁷⁸، وهو ما يعرف بالتراجم الجغرافية (المكانية) التي تُترجم للأعلام في حيز جغرافي معين، وهي من أقل الأنواع تأليفاً في التراجم العربية والإسلامية القديمة بسبب عدم وجود التقسيمات الحديثة⁷⁹.

وما ميز الكتاب -أيضاً- شموليته في التعريف بمن ترجم لهم الغبريني ممن تتلمذ عليهم أو عاصروهم أو أدركهم أو سمع بهم، ذكراً ورحلاتهم وشيوخهم ومواطن تعلمهم "حافظاً لنا صورة صادقة عن الحياة العقلية في مدينة بجاية في مدة قرن كامل ... ولو لا هذا الكتاب لظلت أكثر هذه الصفحات من تاريخ الحركة العلمية الجزائرية مجهولة"⁸⁰، ففي ترجمته للفقيه أبي الطاهر عمارة بن عمارة الشريف الحسني المتوفى بعد 585هـ/1189م راح يصف أسواق بجاية وما يفد إليها من سلع⁸¹، وأرخ الغبريني لفئات المجتمع الفقيرة منها خاصة مما يسمح لنا بتشكيل صورة عن الأوضاع الاجتماعية ببجاية في المائة السابعة، فرغم أنه ترجم للعلماء والصلحاء والفقهاء إلا أننا نجد صوراً عن حياة الغسالين⁸² والمكاسين⁸³.

لم يكتف الغبريني بترجمة مجردة لأعلام عصره بل حاول إثبات بعض النماذج الشعرية والنثرية المنسوبة للمترجم لهم، مثل نقله لأكثر من أربعين قولاً لأبي مدين شعيب الغوث⁸⁴، ونقل خمسة عشر بيتاً من قصيدة لأبي محمد عبد الحق بن ربيع الأنصاري 1285هـ/675م⁸⁵، وضعفها للفقهاء اللغوي أبي عبد الله محمد بن الحسن التميمي 1274هـ/673م⁸⁶، وأكثر من أربعين بيتاً لأبي الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي 1235هـ/633م⁸⁷، وأورد النص الكامل لإجازة الفقيه أبي عبد الله محمد بن محمد بن حسين الخشني (ت في النصف الأول من القرن 7هـ/13م) للفقهاء أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني، ثم أورد نص رسالة هذا الأخير يُثني فيها عليه⁸⁸.

ومما يلاحظ أن الغبريني تساهل في توزيع الألقاب والرتب فنجد معظم من ترجم له حظي بلقب: الفقيه المجتهد المحصل المتقن الصالح الزاهد الورع "دون تمييز بين أديب وشاعر ومحدث ومؤرخ"⁸⁹، كما ترددت كثيراً عبارات "الولي"⁹⁰ و"الفاضل"⁹¹ و"الجليل"⁹² و"المبارك"⁹³، إلى درجة قد تدفع القارئ -لأول مطالعته للكتاب- أن يصنّفه ضمن كتب المناقب لكثرة ما أورده الغبريني من المناقب والمكارم.

ولعل التكوين المتنوع للغبريني انعكس على كتابه فراح يُترجم للفقهاء واللغويين والمحدثين دون تفضيل طائفة عن أخرى.

ومما لُوحظ -أيضاً- أن الغبريني يتحرج من نقد من يُترجم لهم، ويتغاضى عن ذكر ما يقدر فيهم، وقد صرّح بذلك في ترجمته لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الأصولي فقال: "وما زلت أنقد على من يذكر أهل العلم ثم يغمز في شأنهم، ويشير إلى القادح فلا أريد أن أذكر إلا الخير"⁹⁴، ثم ذكر في هذا السياق الآية الكريمة: "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت"⁹⁵ وكأنه يستدل على تحفظه من النقد بالآية.

وللمحقق عادل نويهض انتقاداً على الطريقة التي اتبعها الغبريني في تراجمه التي -حسب قوله- "كانت غير ذاتية في معظمها، فهو لم يعتمد على انتاجهم من حيث قيمته الفنية، ولا على الحياة الشخصية، أو العوامل التي ألهمتهم هذا الأدب أو الإنتاج، مع أنه كان واسع الإلمام بما كتبه، متتبعا مراحل حياتهم مرحلة مرحلة، ولذلك لم يعكس -في بعض تراجمه- صوراً واضحة على ضوء فن كتابة السير والتراجم، مما كان يساعدنا في يومنا هذا على معرفة

على ما كانت تنطوي عليه أحاسيسهم ونزواتهم ، ومقام كل واحد من هؤلاء... ومدى تجاوبهم مع مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرى المجاورة لهم"⁹⁶.

وما لاحظناه بدورنا أن الغبريني لم يعتمد في تراجمه على مصادر ملموسة إلا نادرا، وما ذكر منها لم يصلنا⁹⁷، بل كان يعتمد على ما شاهد وسمع بالاتصال المباشر مع المترجم له، أو السماع ممن عايش المترجم لهم مع ذكر سند هذا السماع بطريقة تُشبه إلى حد بعيد طريقة رواة الحديث.

ويبقى كتاب "عنوان الدراية"-بشهادة المحقق عادل نويهض صاحب معجم أعلام الجزائر-"هو أصدق وأشمل سجل طُبِعَ عن الحياة العقلية في المائة السابعة للهجرة لا في بجاية وحدها إنما في المغرب الأوسط أيضا"⁹⁸.

ولا نجد وصفا أجمل لغة وأعمق معنى من وصف العلامة الأديب الجزائري محمد بن أبي شنب رحمه الله تعالى إذ يقول عن كتاب عنوان الدراية -سجعا على طريقة الغبريني- في مقدمة تخريجه للكتاب ما نصه: "كتاب تلوح أنوار الحقائق من سبل عباراته، ويعبق شذا عرف المعارف من بيان إشاراته، أورد فيه مؤلفه من تراجم عصره، وأخبار أحبار مصره، ما يحتاجه المتشوق إلى فرائد الفوائد، والمتشوق إلى أوابد العوائد، مع ذكر وفياتهم ومؤلفاتهم، وسيرهم في مذاهبهم وعاداتهم، واستطراد الأحاديث الشريفة، والآثار الصالحة المنيفة، والمباحث الفقهية، والفتاوى الشرعية، وغير ذلك مما لا يُحصى ولا من غيره يستقصى"⁹⁹.

ويحق يُعتبر الكتاب مصدرا هاما يؤرِّخ قبل كل شيء للجزائر وحضارتها الإسلامية انطلاقا من البيئة البجائية الأمازيغية التي رأى أعداء الجزائر في أمازيغيها طعما لزرع بذور الفتنة والشقاق.

خاتمة: توفي الغبريني مقتولا في إحدى سجون بجاية سنة 714هـ/1315م على الأرجح¹⁰⁰، وانفرد ابن خلدون بالرواية التي تتضمن مقتل الغبريني، ولم يذكر ابن خلدون أسباب واضحة لمقتله غير أن خصوم الغبريني دسوا له مكيدة عند أمير بجاية أبي البقاء خالد بن يحيى الحفصي "فأغروه به"¹⁰¹ لما أشاعوا أنه حرض قومه "بني غبرين" على السلطة¹⁰².

توفي الغبريني وخلف ما يُحيي ذكره كما أحيا بكتابه "عنوان الدراية" ذكرى فقهاء وصلحاء، وعلماء وفضلاء كاد الزمان أن يأتي على ذكرهم فتندرس أخبارهم وتتوارى أنباؤهم، فنحرم أنوار أقوالهم وعظيم أفعالهم.

إن الحديث عن أبي العباس الغبريني هو حديث عن مؤرخ أمين، وأديب رصين، وفقهه مكين جمع بين الفقه والحديث، فاصطبغت شخصيته بالموسوعية انعكست على مُصَنَّفِهِ "عنوان الدراية"، وهو ما انتهى إليه أبو القاسم الحفناوي ت1360هـ/1943م إذ يقول عن الغبريني وكتابه عنوان الدراية: "وكتابه كتاب رجل خبير بما يقول ودليل على أنه من الفحول"¹⁰³.

هذا قليل من كثير عن "العلامة المحقق والفهامة المُدَقِّق الجامع بين الدراية والرواية، قاضي القضاة ببجاية"¹⁰⁴ أبي العباس أحمد الغبريني، في انتظار أقلام المتخصصين للنتقيب في شخصية الغبريني مؤرخاً وفقهياً وأديباً، فهذا هو أبو القاسم الحفناوي - صاحب موسوعة تعريف الخلف برجال السلف - بعد ترجمته للغبريني يقول بحسرة وخرقة: "يا ليتني أقف على ترجمته أو أسمع بها في كتاب فأستعيده لأطالعها فيه أو أنقلها منه"¹⁰⁵.

الهوامش:

- 1- أنظر ترجمته: ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، الطبعة 02، دار الفكر، بيروت، 1408 هـ - 1988 م، ج: 6، ص: 462. وابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بآباء العمر، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشتون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1389هـ، 1969م، ج: 3، ص: 526. وابن العماد المعري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأناؤوط، الطبعة 01، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، 1406 هـ - 1986 م، ج: 9، ص: 322. وأبو الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس (المجموعة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الأفاق الجديدة، الطبعة 05، دار الأفاق الجديدة - بيروت/لبنان، 1403هـ - 1983م، ص: 132 و133. والمقري التلمساني، نفع الطب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 01، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م، ج: 2، ص: 185. وابن قنفذ القسنطيني، الوفيات (معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين)، تحقيق: عادل نويهض، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1403 هـ - 1983 م، ص: 12. وعبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م، ج: 2، ص: 883. والزركلي خير الدين، الأعلام، الطبعة 15، دار العلم للملايين، آبار / مايو 2002، ج: 1، ص: 90. وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المشي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، ج: 1، ص: 151. وأعادل نويهض، في مقدمة تحقيقه لكتاب: عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، بيروت، لبنان، منشورات دار الأفاق الجديدة، د.ط، ص: مقدمة الكتاب ص: 9-15. ومقدمة رابح بونار في تحقيقه لنفس الكتاب، ص: 12 - 15.
- 2- ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص: 169 و445.
- 3- ابن مخلوف التتالي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة 01، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1418هـ، ص: 11.
- 4- ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج: 3، ص: 536.
- 5- ابن مخلوف، شجرة التوارثية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1349هـ/1930م، ص: 284.
- 6- أحمد بابا التنكي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تحقيق: عبد الحميد عبد الله، الطبعة 01، منشورات كلية الدعوة، طرابلس، ليبيا، ص: 107.
- 7- أنظر فهرست شيوخ الغبريني التي ألحقها في ذيل كتابه: عنوان الدراية، ص: 357 إلى ص: 401.
- 8- ابن أبي زرع، الأئمة المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972، ص: 238 - 239.
- 9- المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، الطبعة 01، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1426هـ / 2006م، ص: 195.
- 10- خالد بلعري، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن بن زيان، دراسة تاريخية وحضارية، 633-681 هـ/1235-1282م، الطبعة 01، المكتبة الوطنية للفنون المطبعية، مطبعة تلمسان، الأولى، 1426هـ/2005م، ص: 37.
- 11- الميلي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، ص: 490 و491.

- 12 - ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.ط، ص: 195.
- 13 - رابع بونار، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 7.
- 14 - إسحاق بن الحسين المنجم، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، الطبعة 01، عالم الكتب، بيروت، 1408 هـ/ 1987م، ص: 13.
- 15 - علي المنصور الكتاني، اتباع الإسلام في الأندلس، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م، ص: 179-180. محمد الأمين بلغيت، فصول في التاريخ والعمران بالغرب الإسلامي، الطبعة 01، أنتر سينتي، الجزائر 1428هـ/2007م، ص: 68.
- 16 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 357 وما بعده.
- 17 - تلقى الغبريني تكويناً على فقهاء اللغة والنحو، كما كانت له محاولات شعرية، وأسلوبه الأبي والسجعي التي طغى على كتابه "عنوان الدراية" شاهد أيضاً على براعته الأدبية.
- 18 - تولى الغبريني القضاء "في مواطن عدة آخرها مدينة بجاية فكان في حكمه شليداً مهيباً". أنظر: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص: 132. ثم ترقى إلى منصب قاضي القضاة وبقي يشغل هذا المنصب الكبير إلى مقتله. أنظر: ابن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، د.ت.ط، ص: 149 و158، وابن فرحون، المصدر السابق، ص: 80.
- 19 - الغبريني، عنوان الدراية، مشيخة الغبريني، ص: 355.
- 20 - الغبريني، عنوان الدراية، مشيخة الغبريني، ص: 360 - 363.
- 21 - الغبريني، عنوان الدراية، مشيخة الغبريني، ص: 364 - 374. وقد وصفه تلميذه ابن قنفذ القسنطيني ت 810 هـ/ 1407م بـ " شيخنا المحدث الحافظ الرواية". أنظر: ابن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، مقدمة المحققين: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، ص: 56.
- 22 - الغبريني، عنوان الدراية، مشيخة الغبريني، ص: 392 - 394. والطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 7 و6 الهجريين / 12 و13 الميلاديين - نشأته - تياراته - دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2004م، ص: 216.
- 23 - الغبريني، عنوان الدراية، مشيخة الغبريني، ص: 358 - 359.
- 24 - الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة 01، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1409 هـ/ 1988م، ج: 1، ص: 260.
- 25 - شهاب الدين العمري، مسالك الأبيصار في ممالك الأمصار، الطبعة 01، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1423 هـ/ 2002م، ج: 4، ص: 145.
- 26 - الجيمري، الروض المعطر في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 02، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980م، ص: 80.
- 27 - الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيخته، ص: 357.
- 28 - الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيخته، ص: 357.
- 29 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 357.
- 30 - أنظر بحث: بحث الدكتور: السياسة والدين بين المبادئ والتاريخ، ندوة الفقه السياسي للأقليات المسلمة بأوروبا، إسطنبول/ 4-6 يوليو 2006م، ص: 13 - 19.
- 31 - الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيخته، ص: 357.
- 32 - نفسه، ص: 375.
- 33 - نفسه، ص: 357.
- 34 - نفسه، ص: 357.
- 35 - نفسه، ص: 109.
- 36 - نفسه، ص: 360.
- 37 - نفسه، ص: 361 و362.
- 38 - نفسه، ص: 364.
- 39 - نفسه، ص: 362.
- 40 - نفسه، ص: 363.
- 41 - نفسه، ص: 367.
- 42 - نفسه، ص: 375.
- 43 - نفسه، ص: 358.
- 44 - نفسه، ص: 358.
- 45 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 389.
- 46 - عادل نويهض، تحقيق عنوان الدراية، ص: 13 و14.
- 47 - ذكرها الغبريني في ترجمته لأبي زكريا يحيى بن محجوبة السطيفي ت 677 هـ/ 1278م (ص: 104) ومطلعه:
- وأحيرة العشاق بالرقباء *** حرماً الوصول لطية الوسماء
- 48 - جاء في البيت: لا تكبحن سرك المكنون خاطبة*** وأجمل لميته بين الحشا جذثا
ولا تقل نفثة المصدور راحته *** كم نافت روحه من صدره نفثا

- أنظر: النباهي، المصدر السابق، ص: 132.
- 49 - سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة الإسلامية عند مالك بن نبي، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، عن المعهد العالي للفكر الإسلامي، د.ت.ط، ص: 27-32.
- 50 - الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيعته، ص: 358.
- 51 - نفسه، ص: 359.
- 52 - نفسه، ص: 359.
- 53 - نفسه، 393.
- 54 - نفسه، 394.
- 55 - استقر الغرب الإسلامي منذ العصر الموحدى على ذلك. أنظر: السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري الطبعة 01، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1418هـ / 1997 م، ج 1، ص: 63. والظاهر بوناني، التصوف في الجزائر ن مرجع سابق، ص: 89. ومبارك رضوان، المذهب المالكي بالمغرب في عهد المرابطين والموحدين، المغرب، رسالة تليل دبلوم الدراسات العليا المعققة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1987م، ص: 206.
- 56 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 73 و 84 و 180 و 193 و 210 و 212 و 223 و 233 و 229 و 317 و 318.
- 57 - الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيعته، 358 - 359.
- 58 - يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه ووضع حواشيه: محمد عبد الله عنان، الطبعة 02، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، 1377هـ / 1957م، ص: 301.
- 59 - الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيعته، ص: 375، 379، 381، 383.
- 60 - نفسه، 364 - 366.
- 61 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 356.
- 62 - الغبريني، عنوان الدراية، الملحق الخاص بمشيعته، ص: 375.
- 63 - نفسه، ص: 356.
- 64 - المغراوي محمد، صمود المذهب المالكي في العصر الموحدى، مجلة دعوة الحق، العدد: 391، السنة 50، صفر 1430هـ / فيفري 2009م، مجلة تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية، ص: 103.
- 65 - النباهي، تاريخ قضاة الأندلس (مصدر سابق)، ص: 132.
- 66 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 22.
- 67 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 30.
- 68 - محمد الشريف (محقق)، المستفاد من مناقب العباد للتميمي، القسم الأول: دراسة للكتاب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، المغرب، ص: 243.
- 69 - نفسه، ص: 156.
- 70 - الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، الطبعة 03، الرسالة، 1405 هـ / 1985 م، ج: 23، ص: 47.
- 71 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 143.
- 72 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 239.
- 73 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 19.
- 74 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 104.
- 75 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 19.
- 76 - عادل نويهض، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 12.
- 77 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 19 و 20.
- 78 - كما أترى بما أترى به نفسه من الترجمة لأعلام المائة السابعة، ولم يستثن منهم إلا المتصوفة الثلاث الذين افتتح بهم كتابه تبركا بذكرهم كما قال الغبريني، وأربع ترجمات توفي أصحابها أواخر المائة السادسة.
- 79 - ترجم الغبريني للجائين، كما ترجم للوافدين عليها من الأندلسيين والغرباء.
- 80 - عادل نويهض، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 15.
- 81 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 45، 46.
- 82 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 178.
- 83 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 191.
- 84 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 30 و 31 و 32.
- 85 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 59.

- 86 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 70 - 71 - 72.
- 87 - الغبريني، عنوان الدراية، 274-278.
- 88 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 252 - 253.
- 89 - عادل نويهض، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 12.
- 90 - الغبريني، عنوان الدراية، 109. 123. 125. 127.
- 91 - الغبريني، عنوان الدراية، ص: 111. 183. 186. 188. 190. 192. 197. 202. 231. 325.
- 92 - الغبريني، عنوان الدراية، 119. 180. 185. 186. 188. 190. 192. 207. 226. 317.
- 93 - الغبريني، عنوان الدراية، 133. 137. 199. 205.
- 94 - الغبريني، ص: 211.
- 95 - نفسه، والآية من سورة هود، الآية رقم: 88.
- 96 - عادل نويهض، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 15.
- 97 - مثل كتاب: "المنتخب المقرب في ذكر بعض صلحاء المغرب"، عنوان الدراية، ص: 50.
- 98 - عادل نويهض، مقدمة تحقيق عنوان الدراية، ص: 15.
- 99 - كلام محمد بن أبي شنب رحمه الله تعالى " مقدمة الطبعة الأولى لعنوان الدراية" ص: 16.
- 100 - محمد الشاذلي النفير، وثيقة تاريخية من العصر الحفصي، المجلة الزيتونية، المجلد 04، العدد 10، جويلية 1941م، ص: 316.
- 101 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج: 6، ص: 462.
- 102 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج: 6، ص: 462.
- 103 - أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، طبع بمطبعة بير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1334هـ/ 1906م، ص: 26.
- 104 - كلام محمد بن أبي شنب رحمه الله تعالى " مقدمة الطبعة الأولى لعنوان الدراية" ص: 16.
- 105 - أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ص: 26.